الفصل التاسع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟ أم محمية القوة العظمى؟ (٢) الرصيد الاستراتيجى للولايات المتحدة

يدين هذا الفصل بأصوله إلى أهم كتاب ظهر عن إسرائيل فى النصف الأخير من القرن العشرين وهو كتاب نعوم تشومسكى.

The Fateful Triangle, The United States, Israel and the Palestinians.

يقول إدوارد سعيد فى تقديم أحدث طبعة:

ربما يكون كتاب Fateful Triangle أكثر الكتب طموحًا فى محاولة دراسة الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين من حيث رؤيته لتورط الولايات المتحدة فى الصراع بصورة مركزية. إنه فضح عنيد للفساد البشرى والجشع البشرى وعدم الأمانة الإنسانية.. ويمكن قراءته باعتباره حربًا ممتدة بين الحقيقة وسلسلة من الأكاذيب - مثل الديمقراطية الإسرائيلية - وخلو إسرائيل من الأسلحة، والاحتلال الرحيم، ولا عنصرية ضد العرب فى إسرائيل، والإرهاب الفلسطينى... وبعد ترديد الحكاية الرسمية، فسرعان ما ألقى بها بعيدًا بقدر كبير من الأدلة المضادة» (Chomsky 1999: 7)[١].

كان هناك سبب بسيط للغاية فى أن الولايات المتحدة ربما كانت بحاجة إلى رصيد استراتيجى (Chomsky 1999: 20) فى الشرق الأوسط فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية. فقد كان هذا هو الإقليم، كما ذُكر فى تحليل وزارة الخارجية ١٩٤٥م، الذى يحتوى على «أحد أكبر الجوائز المادية فى تاريخ العالم» (Chomsky 1999: 17)؛ أى البترول. وكان بوسع إسرائيل أن تلعب دورها للمساعدة فى إحاطة الإقليم ببناء عسكرى، تكون مهمته حماية إمدادات البترول الغربية.

وبمرور الوقت كان لا بد لإسرائيل أن تكون مستفيدة من المعونة العسكرية والمدنية[٢]

أكثر من أية دولة أخرى تابعة للولايات المتحدة، وقد وصل إجمالى هذه المعونة فى نهاية القرن العشرين حوالى مائة مليار دولار.

ونادراً ما يعترف الرؤساء الأمريكيون بالأسباب الحقيقية لمثل هذه المعونة الكبيرة. ولكن الرئيس ريجان كسر الغطاء الديبلوماسى، عندما أفلت منه التصريح التالى:

«مع توفر قوة عسكرية ذات خبرة، تكون إسرائيل قوة فى الشرق الأوسط ذات فائدة حقيقية بالنسبة لنا. وإذا لم تكن هناك إسرائيل بتلك القوة، لتعين علينا أن نوفر ذلك من جانبنا، ولذلك فإن هذا ليس مجرد إنكار للذات من جانبنا» (Aruri 2003: 39).

ولكن من المهم أن ندرك أنه كان على إسرائيل أن تكسب هذا وأن تتعلمه. وقد وصفت الفصول السابقة كيف أن الصهيونية كانت تعتمد تمامًا على رعاية القوة العظمى. وفى غضون ثلاث سنوات فقط من تأسيس إسرائيل، كان منظروها جاهزين للربط بين بقاء إسرائيل والمقاصد العدوانية «للقوى الغربية».

وقد كتب چيرشوم شوكن، ناشر هاآرتس ورئيس تحريرها، التى يقال إنها أكثر صحف إسرائيل جدية، سنة ١٩٥١م ما صار بعد ذلك فعليًا بيان مهمة إسرائيل:

«إن تقوية إسرائيل تساعد القوى الغربية على الحفاظ على التوازن والاستقرار فى الشرق الأوسط. يجب أن تصبح إسرائيل كلب حراسة. ولاخوف من أن تتخذ إسرائيل أية سياسة عدائية عدوانية تجاه الدول العربية إذا تعارض ذلك بشكل واضح مع رغبات الولايات المتحدة وبريطانيا. إذا حدث عداء لأى سبب كان على القوى الغربية أن تغمض أعينها، فإنه يمكن الاعتماد على إسرائيل لإنزال العقاب بدولة أو بعدة دول من دول الجوار التى يتخطى جفاؤها تجاه الغرب حدود المسموح» (Ha'aretz 30 September 1951; cited Bober 1972: 16-17).

وقد تصادف أن سنة ١٩٥١م كانت السنة التى قام فيها الدكتور مصدق، الزعيم الوطنى الراديكالى فى إيران، بتأميم البترول. وقد سارت الوطنية الراديكالية لكى تكتسح جميع أرجاء الشرق الأوسط. وبيان النوايا التى أعلنتها إسرائيل لم يكن ممكنا أن يكون أكثر قدرة على معرفة المستقبل من ذلك. ستصبح إسرائيل فعليًا كلب الحراسة.

دور إسرائيل فى مغامرة السويس وتهديدها لتحرير الجزائر

فى غضون ثمانى سنوات من تأسيس إسرائيل، كانت الدولة اليهودية تضطلع بدور فى مغامرة عسكرية وإمبريالية، مع بريطانيا وفرنسا، فى محاولة للإطاحة بالرئيس جمال عبد الناصر، زعيم مصر الوطنى الثورى. ففى سنة ١٩٥٦م أمم جمال عبد الناصر قناة السويس الشريان الرمزى والعالمى الكبير لناقلات البترول المتجهة إلى الغرب، وهو عمل لاقى شعبية كبيرة فى جميع أنحاء الشرق الأوسط وما وراءه. وعندما أعلنت بريطانيا وفرسا وإسرائيل الحرب على مصر، استنفروا غضب العالم الذى أجبر حتى الولايات المتحدة على الدعوة إلى كبت ذلك.

هذه الحقائق الأساسية معروفة جيداً. ولكن ما هو معروف بدرجة أقل هو كيف أن فرنسا هى التى صارت راعية إسرائيل العسكرية فى تلك الأيام الباكرة (*).

ففى الوقت الذى كانت فرنسا مشتبكة فى واحدة من أكثر الحروب ضد الاستعمار مرارة فى القرن العشرين. كانت قد عقدت العزم على التمسك بمستعمراتها فى شمال أفريقيا، خاصة الجزائر، مهما كان الثمن. وصار الثوار الذين تمثلهم جبهة التحرير الوطنية رمزاً لمطالب العالم النامى، أو «العالم الثالث»، بوجوب الإطاحة بالقهر الاستعمارى إلى الأبد. وقد ألهم هذا الصراع فرانز فانون لتأليف كتابه The Wretched of the Earth وهو كتاب يُضفى الشرعية على العنف الثورى، وقُيض له أن يصير مانفستو حقيقيّا لكل أشكال النضال ضد الاستعمار.

وعندما تولى ناصر السلطة فى مصر، أصاب فرنسا الهلع. إذ إن ناصر وعد بتقديم المساعدة لجبهة التحرير الجزائرية. وعندئذ صارت فرنسا مصابة بالهوس من عبد الناصر وبدأت تتآمر مع إسرائيل للسعى إلى التخلص منه. ومن ثم عُقدت صفقة سرية بين البلدين سنة ١٩٥٥م. حيث قدمت فرنسا الطائرات والدبابات والذخيرة إلى إسرائيل بمعدل بدأ فى تحويل طموحاتها الإقليمية العدوانية إلى حقيقة. ودعت الاتفاقية أيضًا إلى التعاون المشترك مثل وضع محطات إسرائيلية للتشويش على الدعاية المصرية فى كل أنحاء العالم العربى، وكذلك ضرب قواعد جبهة التحرير الجزائرية فى ليبيا

(*) فى استطلاع حديث، ديسمبر ٢٠٠٥، أبدى ٦٤٪ من الشعب الفرنسى موافقته على السياسة الاستعمارية لفرنسا ـ المترجم.

(Shlaim 2000: 164-5). وكانت فرنسا أيضًا هى التى زودت إسرائيل بالتكنولوچيا النووية (Shlaim 2000: 175-6).

لقد وضعت إسرائيل نفسها بشكل واضح فى جانب القوى الاستعمارية الغربية ولكن فى الوقت نفسه مع المستعمرين الفرنسيين شديدى العنصرية الذين استوطنوا الجزائر، وهم الذين سيقدمون فيما بعد الإلهام والكوادر للجبهة الوطنية النازية الجديدة فى فرنسا.

وكان لهذه الحوادث أن تترك انطباعات عميقة على الولايات المتحدة. إذ إن أزمة السويس كانت قد أوضحت أن بريطانيا وفرنسا انتهى زمانهما كدولتين استعماريتين وفى الوقت نفسه، كانت إسرائيل تبرهن على أنها حليف عسكرى خطير فى الميدان. وثمة مذكرة صادرة عن مجلس الأمن القومى فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٨م لاحظت أن «لازمة منطقية» فى معارضة القومية العربية الراديكالية «ينبغى أن يكون دعم إسرائيل بصفتها القوة الوحيدة الموالية الباقية للغرب فى الشرق الأوسط». وقد شجعت الولايات المتحدة التحالف السرى بين تركيا وإيران والحبشة فى ذلك الوقت «التحالف الدائرى» (Chomsky 1999: 21).

١٩٦٧ - ١٩٧٣م: إخراج ناصر وظهور الرئيس نيكسون أعظم أصدقاء إسرائيل، ولكنه صديق غير متوقع

كانت حرب ١٩٦٧م الإسرائيلية - العربية قد حسمت دور إسرائيل باعتبارها الرصيد الاستراتيچى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وقد أهانت إسرائيل عبد الناصر وحلفاءه العرب. ولم يبرأ عبد الناصر أبدًا من هذه الهزيمة حقًا. كما أن القومية العربية الراديكالية نفسها تم تقويضها، وبدأت الممارسات السياسية للإسلاميين المتشددين تحل محل القومية العربية باعتبارها القوة الرئيسية المعادية للإمپريالية فى المنطقة. واستولت إسرائيل على مساحات ضخمة من الأراضى الجديدة، بما فى ذلك القدس كلها، والضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان فى سورية. وكما بينت بوضوح إحدى وثائق الخارجية الأمريكية، اعتراف الولايات المتحدة بقدرة إسرائيل على تمثيل مصالحها:

«ربما تكون إسرائيل قد أسدت إلى الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بالنسبة للمال والمجهود المستثمر أكثر من أى حليف من حلفائنا وأصدقائنا فى أى مكان آخر بالعالم منذ الحرب العالمية الثانية. ففى الشرق الأقصى لا نكاد نجد أحداً يساعدنا فى ڤيتنام، أما هنا فقد كسب الإسرائيليون الحرب، وحدهم، وخلصونا من المشكلة، وخدموا مصالحنا بقدر ما خدموا مصالحهم» (Bonds et al. 1977: 116).

وفى ذلك الحين بدأت الولايات المتحدة ترسل إلى إسرائيل الأسلحة عالية التعقيد، بما فى ذلك طائرات الفانتوم الخارقه لسرعة الصوت التى أطلقت ضد مصر بعد ذلك بأربع سنوات بموافقة من الولايات المتحدة (Shlaim 2000: 293). وفى هذه السنوات الأربع تلقت إسرائيل معونة عسكرية قدرها ١,٥ مليار دولار من الولايات المتحدة ـ وهى تزيد عشر مرات على الكمية التى تم إرسالها فى السنوات العشرين السابقة.

بيد أن هذه الفترة شهدت أيضًا اختبار قوة إسرائيل العسكرية اختباراً عصيبًا. ففى سنة ١٩٧٣م، شن أنور السادات خليفة جمال عبد الناصر، بالاشتراك مع سورية، هجومًا مفاجئًا على إسرائيل، فيما يسمى بحرب يوم كيبور (Shlaim 2000: 318) وقد كشفت هذه الحرب عن مدى قوة العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. إذ تعين على الولايات المتحدة آنذاك أن تعمل بدلاً من أن تنظر بعين الرضا لاستخدام إسرائيل الأسلحة التى أعطتها لها الولايات المتحدة فى إخضاع أعدائها العرب. ذلك أن حسابات الولايات المتحدة أوصلتها إلى أنه كان هناك احتمال جدى بأن تخسر إسرائيل هذه الحرب، وهو احتمال لم تكن قادرة على تقبله تحت أى ظروف.

كان هذا فى الفترة التى أعقبت الهزيمة العسكرية التى كابدتها الولايات المتحدة فى ڤيتنام. وكانت نذر المقاطعة البترولية تتجمع. التوحد مؤقتًا بين العقيد القذافى بليبيا الذى يمثل أكثر البلاد المنتجة للبترول راديكالية، وبين أكثر بلدين رجعيين ينتجان البترول وهما إيران والسعودية. وكان الهدف الرئيسى من المقاطعة البترولية هو توجيه سوق البترول على نحو أكثر ملاءمة لمنتجى البترول، والمساعدة فى جعل منظمة الأوبك (منظمة الدول المنتجة والمصدرة للبترول)، وهى مؤتمر عالمى على المستوى السياسى والاقتصادى ينبغى أن يُحسب له حسابه. بيد أن زعماء المقاطعة البترولية كانوا يطلبون أيضًا بصراحة من الولايات المتحدة أن تكبح جماح إسرائيل. وفى ذلك

الحين خرجت إلى العلن الرابطة التى كانت محل شك زمنًا طويلاً بين رغبة الولايات المتحدة فى السيطرة على بترول الشرق الأوسط ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل . وقد اكتست الأزمة مرارة إضافية بسبب فضيحة فساد ووترجيت التى كانت تشمل نيكسون .

فلم يكن هنرى كيسنجر ، وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار نيكسون فى شئون الشرق الأوسط ، يحمل أية شكوك بشأن استراتيجية الولايات المتحدة ، فقد كانت مسألة تحقيق نصر إسرائيل مسألة جوهرية . ولم يكن هناك محل لكبح جماح إسرائيل . وكان هذا جزءًا مما صار معروفًا باسم مذهب نيكسون . وكما شرح كيسنجر :

«لقد أنقذت الولايات المتحدة إسرائيل من الانهيار فى نهاية أول أسبوع بفضل إمدادات الأسلحة التى قدمناها لها.. وزعم البعض أن الاستراتيجية الأمريكية كانت ترمى إلى إنتاج وضع يمتنع فيه التحرك فى حرب ١٩٧٣م. وهذا خطأ تمامًا. إذ كان المطلوب إلحاق أكبر هزيمة ممكنة بالعرب.. لقد سعينا إلى كسر الجبهة العربية المتحدة» (MERIP Report 1981)[٣] .

كانت مصر ، تاريخيًا ، زعيمة هذه الجبهة الموحدة ضد إسرائيل . وكما لاحظ آرورى أن **الهزيمة العسكرية أتاحت فرصة لكيسنجر لكى ينتزع مصر تمامًا من معارضة إسرائيل فى مقابل مبالغ ضخمة من الدولارات الأمريكية. وصارت مصر محصورة فى فخاخ الدبلوماسية الأمريكية «بحيث صار أمام إسرائيل الوقت لتدعيم احتلالها للأراضى الفلسطينية التى تم الاستيلاء عليها بعد حرب سنة ١٩٦٧م، كما بنت قدرتها الهجومية فى مواجهة بقية الدول العربية على الجبهة الشرقية»** (Aruri 2003: 22) .

مذهب نيكسون: لا حاجة إلى «اللوبى اليهودى»

تمت صياغة مذهب نيكسون ردًا على اندحار الولايات المتحدة الأمريكية فى ڤيتنام . وبطبيعة الحال كانت مصالح الولايات المتحدة فى العالم النامى ما تزال بحاجة إلى الحماية . ولكن منذ ذلك الحين سوف تستخدم «**التفويضات**» (Shlaim 2000: 309): **أى استخدام القوى الإقليمية ذات القواعد المحلية والمكرسة لحماية رؤية الولايات**

المتحدة للحالة الراهنة. وكانت إسرائيل مناسبة لهذا الدور على نحو يثير الإعجاب.

ومنذ ذلك الحين صار نيكسون أول رئيس للولايات المتحدة يقر بشكل شامل سبب وجود إسرائيل Maison d'être، وفهمها لذاتها على أنها «كلب حراسة» للقوى الغربية. وللوهلة الأولى، يبدو نيكسون، وهو جمهورى يمينى، أكثر مرشحى البيت الأبيض رفضًا لمزاعم الدولة اليهودية. وعلى أية حال، نجد أمامنا رئيسًا أمريكيًا اعتاد على التباهى بتجاهل ما يسمى اللوبى اليهودى فى أمريكا. ولم يكن يعتمد على الأصوات اليهودية بأى حال. والحقيقة، ووفقًا لرواية كيسنجر، كان نيكسون يسلِّم بأن اليهود يعادونه سياسيًا:

«كان الرئيس مقتنعًا بأن معظم قادة الجماعة اليهودية عارضوه طوال مسيرته السياسية. وكانت النسبة الصغيرة من اليهود الذين صوتوا له، موضع تندره، لدرجة أنه كان يقول إنهم مجانين ويحتمل أن يلتصقوا به حتى لو انقلب على إسرائيل. وكان يبتهج وهو يخبر مساعديه وزواره أن «اللوبى اليهودى» ليس له تأثير عليه» (Organski 1990: 25).

ويقتبس أورجانسكى، وهو عالم فى العلوم السياسية، هذه الفقرة، وفقرات أخرى مشابهة، من مذكرات كيسنجر، يستبعد فيها تمامًا تأثير «اللوبى اليهودى» على العلاقات الإسرائيلية الأمريكية. وتظهر دراساته الإمبريقية العملية [المبنية على الملاحظة] الواعية كيف أن الأصوات اليهودية والإسهامات المالية اليهودية فى الحملات الانتخابية لم تحدث سوى فرق ضئيل فى السلوك السياسى لأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء الكونجرس على مرِّ السنين. وهو يركز الانتباه على أغلبية السياسيين الأمريكيين الذين لا يدينون للدعم اليهودى بأى دين. وهو يكتشف أنهم يدعمون إسرائيل بطريقة لا تختلف عن طريقة أولئك السياسيين الذين يمكن اعتبارهم متأثرين بالأصوات اليهودية أو بالمساهمات اليهودية فى حملاته الانتخابية. وما يهمهم هو مفهومهم لسلوك إسرائيل فى المنطقة. وهم يرون صفقة. فبخلاف المعونة لبلاد أخرى كثيرة «المساعدة الاقتصادية تُسدى بعض الخير على الأقل لشعب إسرائيل، على حين أن المعونة العسكرية تُسدى الكثير من الخير لصورة تكنولوجيا أمريكا وقوتها» (Organski 1990: 82). عنوان دراسة أورجانسكى The 36 Billion Dollar

Bargain . ويرى السياسيون الأمريكيون حزمة المعونة الأمريكية لإسرائيل، فى المصطلح التقليدى لليبرالية الجديدة، بأنها تساوى ما تحصل عليه أمريكا من خدمات وأنها تحقق لها مكاسب أيضًا .

سحق منظمة التحرير الفلسطينية: كيف ساندت الولايات المتحدة غزو إسرائيل لبنان فى ١٩٨٢م؟

فى بداية أوائل الثمانينيات، كانت هيئة أركان منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت الغربية . وكان المقاتلون الفلسطينيون المسلحون يجوبون شوارع المدينة . وكانت خدمات الرعاية الفلسطينية تحاول جلب المساعدة إلى آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون فى لبنان . وكان الأمر يبدو وكأنه دولة فلسطينية جنينية قد ظهرت فى منطقة حدود لبنان الجنوبية مع إسرائيل، على الرغم من أنها لم تكن فى مكانها الملائم . وكانت إسرائيل تنتظر الفرصة لسحقها .

وقد اتفقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على أن تدمير منظمة التحرير الفلسطينية أو على الأقل ضربها بشدة، هو شرط مسبق لتحقيق «السلام» وفقًا للصيغة الأمريكية ـ الإسرائيلية فى الشرق الأوسط . وهنا كان التطبيق المباشر لمفهوم «الحائط الحديدى»، الذى كان رائده اليمينى الصهيونى چابوتنسكى فى عشرينيات القرن العشرين وطبقته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة (Shlaim 2000) . وقد كانت الولايات المتحدة آنذاك شريك إسرائيل المرحب بضرورة كسر إرادة الوطنية الفلسطينية .

وقبل الغزو الإسرائيلى مباشرة، زار شارون واشنطن حيث زعم أنه حذر الإدارة الأمريكية، على ما يزعم، من أنه سيكون على إسرائيل أن «تتصرف فى لبنان» . ويكشف أعضاء فى البنتاجون عن كمية ضخمة من الإمدادات العسكرية من الولايات المتحدة إلى إسرائيل فى الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩٨٢م، عندما كانت إسرائيل تخطط للغزو . واستمرت عمليات تسليم السلاح هذه طوال يونيه، وشملت ما يسمى «القنابل الذكية» التى تسببت إحداها فى التدمير الشامل لأحد المبانى لتقتل مائة شخص فى جهد واضح لقتل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، الذى كان هناك ظنٌ بأنه فى المبنى (Chomsky 1999: 214) .

وأرقام المعونة الأمريكية العسكرية والمدنية لإسرائيل فى ذلك الوقت فلكية. ففى السنوات المالية من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢م، تلقت إسرائيل ٤٨ بالمائة من مجموع المعونة العسكرية الأمريكية و٣٥ بالمائة من المعونة الاقتصادية الأمريكية على اتساع العالم. فبالنسبة لعام ١٩٨٣م، طلبت إدارة ريجان ما يقرب من ٢,٥ بليون دولار لإسرائيل من إجمالى ميزانية المعونة البالغة ٨,١ بليون دولار أمريكى. (Chomsky 1999: 10).

وقتلت إسرائيل عشرات الألوف من اللبنانيين والفلسطينيين خلال غزوها، ولم تكن إسرائيل مسلحة فقط بما قدمته الولايات المتحدة، بل إن مناحم بيجين رئيس الوزراء تباهى بأن إسرائيل كانت تجرب أسلحة سرية مصنوعة فى إسرائيل لحساب الولايات المتحدة. ومثل هذا السلاح، وفقًا لما أخبر مستمعيه فى أمريكا، قد ساعد الطائرات النفاثة الإسرائيلية على ضرب صواريخ سام ٦ وسام ٨ فى سورية دون خسارة طائرة واحدة (Washington Post, 6 August 1982).

وأخيرًا استفز غزو إسرائيل الأراضى اللبنانية دول العالم وأدانته على اتساعها فى أعقاب المذابح التى قضت على مئات من الرجال العزل، والنساء، والأطفال، على أيدى الميليشيات المسيحية اللبنانية فى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا غرب بيروت. وقد كشف الجيش الإسرائيلى، وخاصة وزير الحرب شارون، أنهم متواطئون فى المذبحة. ولكن الولايات المتحدة نفسها لا يمكن أن تزعم أنها كانت بريئة من دم أولئك الضحايا.

وقبل مذابح صابرا وشاتيلا، كان الضغط المشترك من الولايات المتحدة وإسرائيل قد أجبر منظمة التحرير الفلسطينية على الموافقة على إخلاء غرب بيروت. وتم إرسال قوة أمريكية لحفظ السلام إلى بيروت وعهد إليها بمسئولية مزدوجة لمراقبة انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية وتأمين السكان المدنيين الباقين. ويقتبس تشومسكى البيان الصادر بهذه المناسبة:

«إن حكومتى لبنان والولايات المتحدة سوف تقدمان ضمانات مناسبة بالسلامة... وتطبيق القانون للفلسطينيين غير المقاتلين الذين تركوا فى بيروت، بما فى ذلك عائلات أولئك الذين رحلوا... وسوف تقدم الولايات المتحدة ضماناتها على أساس

التأكيدات التى تلقتها من حكومة إسرائيل وقادة بعض الجماعات اللبنانية المعنية التى كانت على اتصال بها» (1999: 389).

بيد أن حماة السلام الأمريكيين انسحبوا بعد أن ترك مقاتلو منظمة التحرير بيروت، قبل أسبوعين من انقضاء مدة التكليف الأصلى، مما أنهى فعليًا التزام الولايات المتحدة بحماية المدنيين الفلسطينيين. وبعد فترة قصيرة تمكنت قوات الدفاع الإسرائيلية من الإحاطة بمعسكرى صابرا وشاتيلا، مما وفر الغطاء للميليشيات المسيحية. وعلى حد تعبير الكاتب الإسرائيلى عاموس إلون «إن رجلاً يضع حية فى سرير طفل ويصيح: «أنا آسف، لقد نبهت على الحية ألا تلدغ... إن هذا الرجل مجرم حرب» (Chomsky 1999: 392).

اتفاقيات أوسلو
الخداع الأمريكى الإسرائيلى العظيم

الصورة الباقية لاتفاقيات أوسلو للسلام (سميت هكذا لأن أوسلو كانت موقع مباحثات «السلام» السرية بين الفلسطينيين والإسرائيليين) هى بالتأكيد صورة المصافحة الشهيرة بين رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين، وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، فى البيت الأبيض حيث استضافهما الرئيس كلينتون رئيس الولايات المتحدة. والقراء الذين يتذكرون لقطة التليفزيون ربما يتذكرون أيضًا تردد رابين فى مصافحة عرفات. وكونه فعل ذلك فى نهاية الأمر ساعد على تثبيت الأثر العاطفى لكل ذلك. وسوف يطلق عرفات على هذا «سلام الشجعان». وبدا أن الانتفاضة الفلسطينية، التى كانت قد اندلعت فى أواخر الثمانينيات، قد انتزعت أخيرًا بعض التنازلات من إسرائيل. وتم اغتيال إسحاق رابين بعد ذلك بوقت قصير على يد متعصب يمينى، اتهمه ببيع «أرض إسرائيل». وفى تبادل غاضب اتهمت «لياه» أرملة رابين، حزب الليكود اليمينى، البديل الرئيسى بين الأحزاب السياسية الإسرائيلية لحزب العمل، بتقديم العون الإيديولوچى لقاتل زوجها.

ومن المتناقضات أن حادثة الاغتيال أسبغت مزيدا من المصداقية على اتفاقية أوسلو. وهو ما أدى إلى انقسام الصهيونية بشكل قاتل، فقد ظهر وكأن هناك جناحًا أكثر

عقلانية وبراجماتية على استعداد لأن يعترف بالتطلعات المشروعة للشعب الفلسطينى .

وللأسف لم يكن الأمر كذلك . وشلايم ـ مؤلف الكتاب The Iron Wall الذى أوصينا به كثيرا على هذه الصفحات ـ شاهد مهم فى هذه المسألة بشكل خاص . وشلايم مؤرخ إسرائيلى يسارى ، كان فى وقت من الأوقات متحمسا ومؤمنا بحل إقامة دولتين على أرض فلسطين . وكان يأمل استنادا إلى الأمل فى أن تكون أوسلو خطوة حقيقية إلى الأمام ـ أن تبرز دولة فلسطينية حقيقية لتقوم فى الضفة الغربية وغزة . وعلى حد تعبيره ، كان قصد إسرائيل **«أن تعيد ترسيخ الاحتلال العسكرى الإسرائيلى لا أن تنهيه»** (٢٠٠٠ : ٥٢٤) واستمر لكى يلخص بشكل موجز وبارع عملية الخداع فى جوهر اتفاقية أوسلو :

« إن أسوأ ما فى الأمر، هو استمرار بناء المستوطنات الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية، فى انتهاك صارخ لروح إتفاقية أوسلو، بل ونصوصها . ففى قطاع غزة، التى لا يسكنها سوى خمسة آلاف يهودى، سيطرت إسرائيل على ثلث مساحة الأرض، ومعظم المصادر النادرة للمياه التى يحتاج إليها السكان البالغ عددهم مليون فلسطينى. أما فى الضفة الغربية، فقد احتفظت إسرائيل بالسيطرة على موارد المياه وثلاثة أرباع الأرض . واستمر بناء المستوطنات فى كافة أنحاء الضفة الغربية، ولا سيما فى القدس الشرقية دونما عائق، وبدا أن هناك شبكة من الطرق الفرعية قد تم تصحيحها لإجهاض إمكانية قيام دولة فلسطينية» (٢٠٠٠ : ٥٣٠) .

تكمن فى هذا ، وعلى امتداد مئات حواجز الطرق التى تعوق حركة الفلسطينيين بين الضفة الغربية وغزة وإسرائيل ، جذور الانتفاضة الثانية التى اندلعت فى سبتمبر سنة ٢٠٠٠م . وفى الفترة ما بين أوسلو والانتفاضة ، كان عدد المستوطنين اليهود فى الضفة الغربية وغزة قد تضاعف ليصل إلى ما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠ . وعلى أية حال ، فما يحذفه شلايم فى تقريره هو التواطؤ الأمريكى العميق فى هذه الخيانة . فقد كان من مصلحة الولايات المتحدة دائما أن تكون إسرائيل قوية . ولم تكن [الولايات المتحدة] جاهزة لفرض حلول وسط على حليفتها .

وربما يخطر على البال أنه بانهيار الاتحاد السوفييتى والنصر الواضح للولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة فى العالم ، ربما يكون اعتماد الولايات المتحدة

على إسرائيل فى رعاية مصالحها بالشرق الأوسط قد ضعف . ولكن الأمر ليس كذلك طبقًا للچنرال شلومو جازيت، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية الإسرائيلية، وهو موظف كبير فى الإدارة العسكرية للأراضى المحتلة، والذى كان أيضا مشاركا رئيسيا فى الاجتماعات السرية التى طورت الترتيبات الأمنية لتطبيق اتفاقية أوسلو . وفقا لقول جازيت:

«إن مهمة إسرائيل الرئيسية لم تتغير على الإطلاق، وبقيت ذات أهمية حاسمة . إذ أن موقعها فى مركز الشرق العربى المسلم قد قرر دور إسرائيل حارسا مخلصا للاستقرار فى جميع البلاد المحيطة بها..... لكى تحمى أنظمة الحكم القائمة.... وتوقف عمليات التحول الراديكالى، تسد الطريق فى وجه التعصب الدينى الأصولى» (Chomsky 1996:235).

وكون أوسلو قد مثلت الإهانة لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية أمر لقى حفاوة كبرى فى الصحف الأمريكية . وقد وصف توماس فريد مان المراسل المحنك لجريدة نيويورك تايمز فى الشرق الأوسط، خطاب عرفات إلى رابين الذى يحمل الاعتراف بإسرائيل بأنه «ليس مجرد إقرار بالاعتراف، إنه خطاب استسلام، راية بيضاء مكتوبة على الآلة الكاتبة تخلى فيها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن كل موقف سياسى اتخذه ضد إسرائيل منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤» (Chomsky 1996:265) وكان احتقار الولايات المتحدة لعرفات واضحا وملموسا . وقد تم توضيحه بشكل كبير فى أوائل إدارة ريجان التى مهدت السبيل لـ «عملية السلام» . وكان جورج شولتز وزير خارجية ريجان يسخر من ياسر عرفات فى مذكراته التى تحمل عنوان Turmoil and Truimph . ويصف شولتز عرفات وهو يقفز بين الأطواق لكى يعرف فقط من هو الرئيس، بجعله ينطق ما أسماه شولتز «الكلمات السحرية» ويحكى أنه أخبر ريجان فى ديسمبر سنة ١٩٨٨م أن عرفات كان يقول فى أحد الأماكن نصف كلمة «عمى uncle» ويقول نصفها الثانى فى مكان آخر، ولكنه لم يقل بإرادته حتى الآن كلمة «عمى» كاملة فى أى مكان (*) (Chomsky 1996:28).

(*) السخرية والازدراء هنا، أنه على ياسر عرفات أن يقول لأمريكا عمى سام، تعبيراً عن الرضوخ والتنازل التام - المترجم.

وكان الصحفى الإسرائيلى دانى روبنشتين قد تنبأ بدقة تامة بما كان يعنيه «الحكم الذاتى» الذى كانت الولايات المتحدة وإسرائيل على استعداد لتقديمه للفلسطينيين حقا . لقد كان «حكما ذاتيا فى معسكر اعتقال للفلسطينيين، حيث يكون السجناء مستقلين فى طبخ وجباتهم دونما تدخل، وفى تنظيم الأحداث الثقافية»(Chomsky 1996:223).

وفى غضون أشهر قليلة فقط بعد معاهدة أوسلو ، كتبت الصحافة الإسرائيلية :

«خطط حكومية سرية لدمج القدس الكبرى فعليا فى أريحا ، مع مشروعات بناء ضخمة ، وخطط لمواقع سياحية على امتداد الساحل الشمالى للبحر الميت ، وحوالى ٧٠٠ مليون دولار من الاستثمارات فى الطرق الجديدة لربط المستوطنات بإسرائيل ، مارا بجوار القرى والمدن الفلسطينية . . . » (Chomsky 1996:264) .

وأغمضت الولايات المتحدة عينها . وتوطدت الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، وبقيت المياه عاملا حاكما فى القبضة الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية . وكان أن أحد المتخصصين البارزين فى الموضوع بإسرائيل ، وهو البروفيسور حاييم جفيتزمان ، والذى كان أيضا مستشارا لوزارة الدفاع بالولايات المتحدة ، قد وصف كيف أن نموذج الاستيطان فى الضفة الغربية قد حسم بالقدرة على الوصول إلى الماء . وقد حذر - فى سياق تعليقه على مصادر المياه قبل أوسلو - من أن أى اتفاق سلام يجب أن يضمن ٥٠٠ مليون من إجمالى ٦٠٠ مليون متر مكعب من المياه التى تؤخذ سنويا من (يهودا والسامرة) ، وهى الكلمات التى استخدمها لوصف الضفة الغربية ، دون أى شعور بالحرج . **هذه سرقة على نطاق واسع - ضخ المياه الفلسطينية إلى إسرائيل من المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض المحتلة.** ومياه الضفة الغربية تكفى حوالى «ثلث الاحتياجات المائية لمواطنى إسرائيل» (للتجمعات الحضرية ، والرى ، الخ) **وكانت رؤية جفيتزمان أن «سلطات الحكم الذاتى لا يجب أن تمنح السلطة على مصادر المياه فى مناطقها»**(Chomsky 1996:210) . وحتى جريدة Financial Times أكدت الظلم البشع في هذا كله عندما عززت أوسلو هذه النماذج من الإستحواذ على المياه : «لا شىء يرمز إلى عدم المساواة فى استهلاك المياه أكثر من المروج الخضراء اليانعة وأحواض الزهورالمروية ، والحدائق المزدهرة وأحواض السباحة فى المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية» (8 August 1995) فى الوقت الذى كانت فيه القرى الفلسطينية المجاورة محرومة من حق حفر الآبار .

كذلك كشفت مسألة اللاجئين كيف كانت اتفاقية أوسلو قد جعلت الولايات المتحدة تقبل الحل الوسط. إذ أن مسألة اللاجئين قد وضعتها أوسلو على الرف حتى ما يسمى بمحادثات الوضع النهائى. والآن صار معلوما لدى الكافة أنه لا نية إطلاقا لدى إسرائيل بالتسليم بحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة. وقد دعم الرئيس كلينتون هذا الموقف الإسرائيلى بتلاعبه باتفاق أوسلو على نحو معيب. ولأن المسألة سوف تكون «محل محادثات»، فقد كانت تلك الخدعة لمحاولة تقويض خمسين عاما من سياسة الأمم المتحدة فى الموضوع.

عكس كلينتون التأييد الذى أبدته الولايات المتحدة فترة طويلة على قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الصادر فى ديسمبر ١٩٤٨م، والذى يؤكد حق اللاجئين الفلسطينيين الذين كانو قد هربوا أو طردوا خلال القتال فى العودة إلى ديارهم. وللمرة الأولى انضمت الولايات المتحدة إلى إسرائيل فى معارضة القرار الذى تم التأكيد عليه بـ ١٢٧ صوتا مقابل اثنان.

كان القرار ١٩٢ تطبيقا مباشرا للمادة ١٣ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، الذى تبنته الأمم المتحدة فى اليوم السابق (١٠ ديسمبر ١٩٤٨م). وتقرر المادة ١٣ أن «لكل شخص الحق فى مغادرة أى بلد ـ بما فى ذلك بلاده ـ والعودة إلى بلاده» والإعلان العالمى لحقوق الإنسان تم الاعتراف به فى محاكم الولايات المتحدة وغيرها باعتباره «قانون العرف العالمى» و«التعريف المعترف به لحقوق الإنسان».

وحجة إدارة كلينتون فى الأمم المتحدة سنة ١٩٩٣م، كانت فى أعقاب أوسلو، فإن القرارات الماضية «كانت لاغية ومبنية على ظروف تاريخية معينة». بل إن واشنطن دعت إلى إلغاء لجنة الأمم المتحدة الخاصة بالحقوق الفلسطينية، التى وصمتها بأنها «منحازة وزائدة عن الحاجة وغير ضرورية» (Chomsky 1996:219).

هل هى مؤامرة صهيونية؟
الانتفاضة الثانية، و ١١ /٩، وحرب بوش على الإرهاب

ثمة رأى شائع على نطاق واسع بأن الإدارة الجمهورية اليمينية للرئيس چورچ بوش قد طورت علاقات أوثق مع إسرائيل، مع بداية القرن الحادى والعشرين من أية حكومة

سابقة فى الولايات المتحدة . والحقيقة ، أن هناك رأيا بأنه ، بعيدا عن أن الولايات المتحدة توجه السياسة الإسرائيلية ، فإن العلاقة قد انعكست رأسا على عقب وبدأت إسرائيل توجه سياسات الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط .

ومن المؤكد أنه هناك إدراك لتأثير صهيونى قاهر فى واشنطن . وفى الكثير من أنحاء العالم الإسلامى ، كانت النظرة إلى ذلك ، تراها مؤامرة صهيونية .

والآن عبارة «مؤامرة صهيونية» عبارة عاطفية ومحملة بالتاريخ ، لا سيما فى أوروبا وأمريكا ، فهى ترجيع لصدى ذكريات اللا سامية فى كتابها الكلاسيكى المزيف الشهير «پروتوكولات حكماء صهيون ـ The protocols of the Elders Zion» (انظر الفصل ٦) ، الذى اتهم اليهود بالتآمر سرًا للسيطرة على العالم . فقط لم يكن هذا هو المقصود . وهنا كان الاتهام هو أن حكومة إسرائيلية تتآمر مع الولايات المتحدة للاستيلاء على المزيد من الأرض الفلسطينية ، وفى الوقت نفسه للإطاحة بمعظم أنظمة الحكم العربية والإسلامية فى المنطقة . وبطبيعة الحال ، إن لم تكن حريصا ، فهى تنزلق من موقف لآخر . ولأن الحكومات الإسرائيلية تزعم أنها تتحدث لصالح جميع اليهود ، ولأن الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم ، فإنه يمكن المجادلة من هذا المنظور ، بأن اليهود كانوا يستغلون الولايات المتحدة لإضعاف أعداء إسرائيل وزيادة قوتهم فى العالم . **أضف إلى هذا الزعم الصهيونى بأن كافة الأراضى الفلسطينية ملك لليهود** ، ويصبح لديك خليط قابل للاشتعال .

كان هذا هو السبب فى أن الترجمة العربية لپروتوكولات حكماء صهيون وجدت جمهورا .[٤] وبطبيعة الحال ، فإن الحجة فاسدة فى جوهرها مثلما كانت على الدوام . فلا يوجد ، ولم يوجد أبدا ، كتلة يهودية عالمية موحدة . وقوة إسرائيل متوقفة على قوة أمريكا ، ومن المؤكد أنها لا تعتمد على قوة يهودية عالمية متخيلة . وبالإضافة إلى هذا فثمة أقلية كبيرة ومتنامية من اليهود عبر العالم قد اشمأزت من سلوك إسرائيل . ولكى نقدم مثالا واحدا فحسب : ربع مؤيدى حركة التضامن العالمية مع الشعب الفلسطينى من اليهود وهى مجموعة إسرائيلية ـ أوروبية ـ أمريكية ـ راديكالية تدعو إلى السلام ، وقُتل أعضاء منها بأيدى الجيش الإسرائيلى لأنهم تظاهروا تأييدا للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة .

والسؤال عما إذا كان زعماء الجماعة اليهودية حول العالم قد قاموا بما يكفى للبوح بعدم رضاهم، فهو أمر آخر، وسنناقشه فى الفصل الأخير، **أما السؤال عما إذا كانت هناك «مؤامرة صهيونية» بالمعنى الأكثر تحديدا، أى خطة أمريكية ـ إسرائيلية مشتركة، يقودها الصهاينة الملتزمون، لزيادة القوة المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، فهو سؤال مشروع.**

***

ومن الواضح، إذن، أنه فى بداية القرن الحادى والعشرين، كان الصراع الإسرائيلى الفلسطينى قد أخذ يصير محصورا فى مناخ سياسى مختلف تماما، وأشد إزعاجا. ولكى نحصل على صورة دقيقة لما كان يحدث حقا، كنا بحاجة ـ ونحتاج الآن ـ إلى إعادة رواية الحقائق الثابتة بطريقة هادئة واضحة.

عندما صار بوش رئيسا فى يناير سنة ٢٠٠١م، كانت عملية أوسلو للسلام قد انهارت للأسباب التى شرحناها فيما سبق، وكانت الانتفاضة الثانية تشتعل. وفى غضون أسابيع قليلة فقط، كان آريل شارون قد انتخب رئيسا لوزارة إسرائيل على قاعدة الليكود فى استخدام القوة القصوى لسحق الانتفاضة. وفى وقت لاحق من السنة نفسها شن بوش حربه على الإرهاب فى أعقاب الحريق الهائل الذى صار معروفا باسم ١١ سبتمبر، عندما قتل آلاف من الأمريكيين عندما اصطدمت طائرات مخطوفة بمركز التجارة العالمى فى نيويورك والبنتاجون.

وعندما تحركت حكومة شارون لتشن هجوم إسرائيل العسكرى على الانتفاضة الفلسطينية كجزء من حرب الولايات المتحدة الأوسع ضد الإرهاب، وجدت قبولا لدى واشنطن.

والحقيقة أن أساس محاولة التنسيق فى الهجوم، الأيديولوچى والأنشطة السياسية والعسكرية لحكومة الليكود اليمينية فى إسرائيل، والإدارة الجمهورية اليمينية فى الولايات المتحدة كان قد تم إرساؤه منذ سنوات طويلة قبل ذلك.

ووفقا للصحفى بريان هويتاكر من صحيفة الجارديان، فى تحقيق لم يحظ سوى بقدر

قليل من الاهتمام، وإن اتسم بقدر عال من الابتكار: «لعب البولنج مع صدام» (٢ سبتمبر ٢٠٠٢، Guardian online):

«يمكن تتبع جذورها ـ جزئيا على الأقل ـ في ورقة عنوانها «التحلل النظيف»(*)، نشرت سنة ١٩٩٦م من قبل مؤسسة فكرية إسرائيلية «هي معهد الدراسات السياسية والإستراتيجية المتقدمة». وكان المقصود أن تكون خطة على الورق لحكومة الليكود القادمة برئاسة بنيامين نتنياهو».

كانت تأمل ـ من بين أشياء أخرى ـ في انهيار أوسلو والعودة إلى طريق الصهيونية الفجة في اغتصاب الأرض دونما حياء أو خجل. وعلى حد تعبير الورقة «إن دعوانا في الأرض التي تطلعنا إليها بأمل على مدى ألفي سنة ـ دعاوى مشروعة ونبيلة»، وتستمر الورقة لتقول: « فقط القبول غير المشروط لحقوقنا من جانب العرب، لا سيما في بعدهم الإقليمي ....هو أساس صلب للمستقبل».

وتضع الورقة خطة سوف تستطيع إسرائيل بها «أن تشكل بيئتها الإستراتيجية» بدءا بإزاحة صدام حسين.

وتؤكد الورقة أنه سيكون على إسرائيل ـ لكي تنجح ـ أن تكسب تأييدا أمريكيا واسعا لهذه السياسات الجديدة، ونصحت نتنياهو بأن يصيغها في «لغة مألوفة للأمريكيين بالتأكيد على قضايا الإدارات الأمريكية أثناء الحرب الباردة والتي تنطبق على إسرائيل بشكل جيد».

وحسبما أوضح هويتاكر «للوهلة الأولى، يبدو أنه ليس هناك الكثير مما يميز ورقة «التحلل النظيف» سنة ١٩٩٦م عما تنتجه مؤسسات الفكر اليمينية وغلاة الصهيونية الآخرون. . . . سوى ما يتعلق بأسماء كتابها». فقد كان هؤلاء موظفين جمهوريين كبارا، معظمهم من اليهود، وليسوا إسرائيليين، وهم الذين باتوا يعرفون باسم المحافظين الجدد. وكان كاتب الورقة هو ريتشارد بيرل، رئيس مجلس سياسات الدفاع في البنتاجون سنة ٢٠٠٢م. كذلك كان من بين الفريق المكون من ثمانية أعضاء،

(*) من اتفاقيات أوسلو ـ المترجم.

دوجلاس فيث، وهو محام من المحافظين الجدد، سوف يتولى أحد المناصب الأربعة الرئيسية فى البنتاجون تحت رئاسة بوش كمساعد وزير للشؤون السياسية . وحسبما لاحظ هويتاكر «اعترض السيد فيث على معظم اتفاقات السلام التى عقدتها إسرائيل على مر السنين. . . . وكان يعتبر عملية أوسلو للسلام لا شىء أكثر من مجرد انسحاب أحادى يثير مسائل حياة أو موت بالنسبة للدولة اليهودية».

وهناك اثنان آخران من صناع الرأى فى الفريق هما ديفيد وورمسر وزوجته، ميراف، مؤسسة منظمة Memri الخيرية، ومركزها واشنطن وتوزع مقالات مترجمة عن الصحف العربية ـ ترسم كما يقول هويتاكر ـ صورة «العرب فى شكل سيئ». وبعد أن عمل وورمسر مع بيرل فى معهد المشروع الأمريكى، كان فى وزارة الخارجية، مساعدا خاصا لجون بولتون، مساعد الوزير للحد من التسليح والأمن الدولى، واستمر هويتاكر:

«كان هناك عضو خامس فى الفريق هو جيمس كولبرت، من المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى، الذى يتخذ من واشنطن قاعدة له، وهو معقل من معاقل صقور المحافظين الجدد، وكانت هيئته الاستشارية قد كلفت من قبل ديك تشينى نائب رئيس الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٢ [ومهندس رئيسى للحرب على العراق] فى وقت سابق، وجون بولتون ودوجلاس فيث. . . . . وعدد من كاتبى ورقة «التحلل النظيف» ممن يشغلون مواقع قيادية فى واشنطن فى إدارة بوش، **بخطة لإسرائيل لإعادة تشكيل الشرق الأوسط، تبدو صفقة جيدة قابلة للتحقيق اليوم أكثر مما كان الحال سنة ١٩٩٦م»**.

والحقيقة أنه منذ ذلك الوقت، فإن مايسميه هويتاكر مباراة «لعب البولنج» كانت تضرب بشكل منتظم العناوين الرئيسية، على حين لم يبذل المحافظون الجدد أية محاولة لإخفاء رغبتهم فى «تغيير النظام» فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . ومن المؤكد أن إيران، وربما المملكة العربية السعودية، على قائمة ضربات البولنج التى ستوجهها الولايات المتحدة.

وقبل أسبوعين من نشر هويتاكر لمقالته، وقبل عدة شهور من حرب أمريكا وبريطانيا على العراق، صرح توم نيومان، المدير التنفيذى للمعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى بالخطة، فى صحيفة واشنطن تايمز فى مصطلحات واضحة باردة :

«من المحتمل أن تنجو الأردن من الحرب القادمة بمساعدة الولايات المتحدة، وكذلك تنجو بعض مشيخات الخليج [Sheikhdoms] ومن المحتمل ألا يبقى نظام الحكم السعودى الحالى . وسوف تتم مساعدة الحركة الانشقاقية فى إيران بشكل ضخم بسقوط صدام، وسيكون على الفلسطينيين أن يعرفوا أن المستقبل سيكون مع الغرب. ومن المحتمل أن ديكتاتورية البعث بسوريا ستسقط غير مأسوف عليها ، وكذلك تتحرر لبنان. أما إسرائيل وتركيا الديموقراطيتان الوحيدتان حاليًا فى المنطقة،فستجدان نفسيهما مع جيران أفضل بكثير» (مقتبس من هويتاكر).

وهكذا، بدا أن أصحاب نظرية المؤامرة الصهيونية لهم حق. والواقع أنه فى بعض الأوقات كان يظهر وكأن آرييل شارون شخصيا يوجه سياسة البيت الأبيض. ولم يكتف بوش فقط بأنه بدأ فى تسمية شارون «رجل السلام» ، ولكن كثيرا من المعلقين- ومنهم صحفيون إسرائيليون، بل وأحد زملاء شارون فى الوزارة- كانوا مقتنعين بأن خطبة بوش التى استحوذ عليها «الإرهاب الفلسطينى» كتبها شارون فعلا[٥] .

وعلى الرغم من أننى سأجادل بأن المحافظين الجدد ليسوا ناجحين كما يظن كثير من الناس فإننا مع هذا، نحتاج بالفعل إلى أن نتوقف ونعلق على استخدامهم المتغطرس الصادم للقوة . لقد حاولوا بالفعل أن يفرضوا صيغة أشد تعصبا من الصهيونية على سياسة الولايات المتحدة - إسرائيل، لكى يحققوا الدمار الكامل والاذلال للشعب الفلسطينى. ولهم نفوذ حقيقى فى أروقة القوة العظمى الوحيدة فى العالم،وكذلك لهم نفوذ فى أقوى دولة بالشرق الأوسط. وهم يمثلون حقًا تهديداً خطيراً للعالم العربى . ولكنهم أيضا يمثلون تهديدا لليهود ؛ لأنهم يتحدثون أعلى من اللازم بصوت الصهيونية . وتأمل حركة معاداة السامية خيالية ، تدين هذه الزمرة الشريرة من اليهود الأمريكيين مزدوجى الولاء الأثرياء الأقوياء ، والتى تتآمر للسرقة الكاملة لكل فدان أرض فى فلسطين وكل نقطة مياه فلسطينية ، ثم اسأل نفسك ما الذى لا توافق عليه فى هذا الزعم . الإجابة هى أنه لا يوجد شىء لا توافق عليه ! طبعا من المؤكد تماما أن سلوكهم المشين ليس فى صالح غالبية اليهود، وهذا ما يسقط الاتهام بمعاداة السامية .

بيد أن هذا العامل الحاسم يمكن أن يبدو فطنة غابت أو أسىء فهمها على الأقل ، وما يعنيه هذا كله هو أن المحافظين الجدد يشكلون عاملا يسهم فى معاداة السامية فى الشرق

الأوسط وفى أجزاء أخرى من العالم، وكلما أسرعنا فى عزل زمرتهم وكسرها كلما كان ذلك أفضل.

وكما حدث، لم يجدوا أنه من السهل تطبيق مفهوم الليكود على نحو كامل. ويجب أن تتذكر أن منصب الليكود هو التخلى عن أنشطة صنع السلام الفلسطينية - الإسرائيلية يمكن أن تؤدى إلى أى حديث عن الدولة الفلسطينية.

ومع ذلك فإن چورچ دبليو. بوش بدأ يتحدث عن «دولة فلسطينية قادرة على العيش». والواقع أن هذا الجزء من إستراتيچية «الأمن القومى» لدى إدارة بوش والذى يتناول إسرائيل/ فلسطين، قد صدر فى ظل ماحدث يوم ١١ سبتمبر ويبتعد بوضوح تام عن صهيونية الليكود. وبدلا من ذلك يفرط فى صياغة بلاغية كان يمكن أن تكون من نتاج قلم يكتب ورقة سياسية لكلينتون أو حتى الأمم المتحدة. ويجب أن نتذكر أن هذا كان أهم تصريح بالمقاصد من جانب الإدارة، المانيفستو الذى أصدرته ضد الإرهاب، مع تلميحات قوية لحربها الوشيكة على العراق. إلا أن اللهجة مختلفة حول إسرائيل/ فلسطين:

«لا يمكن أن يكون هناك سلام لأى من الجانبين بدون حرية لكل من الجانبين. وتبقى أمريكا على التزامها بفلسطين مستقلة وديموقراطية، تحيا بجانب إسرائيل فى سلام وأمان. ومثل جميع الشعوب الأخرى، يستحق الفلسطينيون حكومة تخدم مصالحهم وتستمع إلى أصواتهم.... فإذا ما اعتنق الفلسطينيون الديموقراطية، وحكم القانون، وواجهوا الفساد، ورفضوا الإرهاب بقوة، فإنه يمكنهم أن يعولوا على المساندة الأمريكية فى خلق دولة فلسطينية.

ولإسرائيل أيضا حصة كبيرة فى نجاح فلسطين الديموقراطية، ذلك أن الاحتلال الدائم يهدد هوية إسرائيل وديموقراطيتها. ولذا فإن الولايات المتحدة مستمرة فى تحدى الزعماء الإسرائيليين لكى يتخذو خطوات راسخة لمساندة ظهور دولة فلسطينية قابلة للحياة وحقيقية. وبما أن هناك تقدما نحو الأمن، فإن على القوات الإسرائيلية أن تنسحب تماما إلى الموقع الذى كانت فيه قبل ٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م... ويجب أن يتوقف النشاط الاستيطانى الإسرائيلى فى الأراضى المحتلة. وبما أن العنف ينحسر، فإنه يجب إعادة حرية الانتقال، بما يسمح للفلسطينيين الأبرياء باستئناف العمل والحياة العادية...» (www.white house.gov/nsc/nsall.html).

وبطبيعة الحال لم يكن هناك التزام هنا لإجبار إسرائيل على التخلى عن المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة، دعك من أى ذكر للقدس واللاجئين . ومع هذا فمن المؤكد أن هذا لم يكن «التحلل النظيف» الذى طلبه المحافظون الجدد الليكوديون فى قلب إدارة بوش، فالحقيقة أن هذا يعود بنا القهقرى إلى النقطة التى انهارت عندها اتفاقية أوسلو بالضبط .

وعلى أية حال، فليس مذكورا أنه كان هناك اتفاق حول بعض الأهداف فى السياق الأوسع للشرق الأوسط . بيد أن نقطة البداية كانت هى مصالح الولايات المتحدة العالمية، بدلا من مصالح إسرائيل الإقليمية . وهناك واحد من المحافظين الجدد اليهود، پول ولفوفيتز، أحد واضعى استراتيچية الأمن القومى ونائب وزير دفاع الولايات المتحدة دونالد رامسفيلد فى إدارة بوش، قد رسم الخطوط العريضة لنظرة عالمية للإدارة الجمهورية، فى مقالة كتبها قبل أن يتسلم بوش مقاليد السلطة .

وبمقارنة بداية القرن الحادى والعشرين ببداية القرن العشرين، جادل ولفوفيتز بأن الصين لديها إمكانية خلق ذلك النوع من التهديد الذى مثلته ألمانيا منذ مائة عام مضت على بريطانيا . والاستنتاج الختامى : تعزيز وضع الولايات المتحدة كقوة عظمى . وأين هو المكان الذى يفوق الشرق الأوسط كبداية؟، على الأقل بسبب مصالح أمريكا فى بترول الشرق الأوسط (www.nationalinterest.org) [٦] .

كان هذا هو العامل الثانى الذى يشكل السياسة العالمية للولايات المتحدة : عزمها على السيطرة على إمداداتها البترولية، وزيادتها . وفى مايو ٢٠٠١م نشرت إدارة بوش خطتها الوطنية للطاقة، والتى أعدها فريق يرأسه ديك تشينى . وهو يدعو الحكومات فى الدول المنتجة للبترول حول العالم - وليس فى الخليج فقط - لمزيد من انفتاح صناعاتهم البترولية أمام شركات البترول الأمريكية[٧] .

كان البترول عاملا رئيسيا أدى إلى كل من الحربين اللتين قادتها الولايات المتحدة ضد العراق، فى سنة ١٩٩١ وسنة ٢٠٠٣م. وفى كل من المناسبتين تم إجبار إسرائيل فى أدب ولكن فى حزم بأن تبقى ساكنة وأن تخرس . وهذا كشف حدود دور إسرائيل باعتبارها وكيل الولايات المتحدة . وعندما صارت الولايات المتحدة متورطة عسكريا بصورة مباشرة، صارت طموحات إسرائيل الأكثر توحشا نوعا من الإحراج .

نعم، كان هناك دونما شك فرخ ليكودى فى عش بوش . ولكن هل كان يسيطر على العش؟

فى أوائل سنة ٢٠٠٣م، نشرت إدارة بوش خطة «خارطة الطريق» التى وضعتها لتحقيق السلام الإسرائيلى ـ الفلسطينى . وكان هذا التعبير العملياتى لإستراتيجية الأمن القومى . وكشف استقبالها فى أمريكا عن أوجه القوة وأوجه القصور فى الخطة الرئيسية لليكود.

وأحد جوانب القوة المباشرة فى خطة الليكود، هو تكاثر مراكز الفكر الصهيونى المتشدد التى تحظى بتمويل جيد . وقد استكشف هويتاكر هذا فى مقالة منفصلة بصحيفة الجارديان عنوانها «US Think Tanks Give Lessons in Foreign Policy» (19 August 2002, Guardian on line) [٨] وقد نجح تمامًا أيديولوچيوها فى الحصول على عمود فى الصفحة المواجهة لصفحة الرأى فى الصحف الرئيسية بالولايات المتحدة . ومن المؤكد أنه فى صيف سنة ٢٠٠٣م بدا أنهم كانوا قد حققوا نصرا مهيبًا، وهو السيطرة على أعمدة الرأى فى Wall Street Journal .

وفى يونيو سنة ٢٠٠٣، كان كتاب الأعمدة هؤلاء قد أصيبوا بداء السكوت عندما انتقد بوش شارون لمحاولته اغتيال عبد العزيز الرنتيسى، أحد القادة السياسيين لحركة حماس الإسلامية. فقد كانت محاولة وقحة لإغراق «خارطة الطريق» ، وكان ذلك واضحا لأن حماس كانت تشير على مدى عدة شهور إلى استعدادها للتفكير فى وقف إطلاق النار . وكان السؤال الوحيد هو ما إذا كان يجب إغراق «خارطة الطريق».

وقد أعطى الوول ستريت جورنال مساحة لروث ويسى ، الأستاذة فى جامعة هارڤارد لتشرح بعض الحقائق الموجودة فى الداخل للرئيس بوش :

« ما يزال البيت الأبيض يميل إلى التعامل مع الأزمة الإقليمية باعتبارها «صراعا بين شعبين على أرض واحدة» ويمكن حلها بخلق دولة فلسطينية . . . ومن سوء الحظ، فإن الحرب العربية ضد إسرائيل ليست صراعا إقليميا بدرجة أكبر مما هو الحال فى ضربات القاعدة ضد أمريكا، ولا يمكن حلها بخارطة الطريق مثلما لا يمكن وقف نزعة معاداة أمريكا بالتنازل عن جزء من الولايات المتحدة لتتحول إلى مقاطعة إسلامية» (Jews and Anti-Jews, 16 June 2003).

لقد كنا آنذاك خاضعين لما كان يمكن وصفه بأنه صخب أو تيار من الوعى ـ سوف نعفى القارئ منه ـ يختص برؤيتها عن اللاسامية العميقة على الطريقة النازية التى تسبب الآن الحزن للعالم العربى والإسلامى بأسره . ومع ذلك فإن ويسى كانت نموذجا لضبط النفس مقارنة بكاتبة العمود التى جاءت بعدها بأيام قلائل . وهى سينثيا أوزيك وهى روائية، ومن الواضح أنها عرّفت جريمة فلسطين الحقيقية : لقد اعتبروا أنفسهم أمة :

«لكى يحرموا اليهود من ميراثهم، اصطنع الفلسطينيون رواية متعصبة غريبة عما هو معروف وشائع . . . فيزعمون أنهم أحفاد حضارات عاشت على هذه الأرض منذ العصر الحجرى . . . وبإحلال الخيال محل التاريخ، اخترع الفلسطيبون مجتمعا لا يشبه أى مجتمع آخر، حيث الكراهية تبز الخبز وتتفوق عليه . وقد ربوا الأطفال ـ خلافا لأى أطفال آخرين ـ وأبعدوهم عن السلوك والقواعد المعتادة . . . [وجندوهم] لتفجير أنفسهم بهدف القضاء على أكبر عدد ممكن من اليهود . . . ونحن الآن نعيش مع اللا تاريخ، حيث ينعكس السبب والتأثير، فالحماية ضد الهجمات تتساوى مع وحشية الهجمات ، ومسائل الوجود قد حُطّ من شأنها أو تم تجاهلها؛ والتعتيم على دائرة العنف تتبناه وزارة الخارجية بحماسة، هى والاتحاد الأوروبى (When Hate Trumps Bread. 30 June 2003).

فقط فى حال أن فصاحة أوزيك عبرت فوق رأس القارئ، يجب أن نشرح أن ملاحظاتها الخاصة بدائرة العنف والحماية ضد الهجمات الخ، كانت عن انضمامها إلى الغضب العام؛ لأن شارون مُنع الإذن باغتيال الرنتيسى .

وعلى أية حال، فإن مجانين الليكود يتلهون باللعب على صفحات بعض صحف الولايات المتحدة وأعمدتها فقط، لقد كانوا قد وطدوا أنفسهم ـ دونما كفاءة كما سنرى ـ فى ساحة أكثر خطورة وتهديدا من ساحات السياسة الأمريكية .

***

فى وقت الكتابة ـ صيف سنة ٢٠٠٣م ـ كان مصير خارطة الطريق أبعد ما يكون عن الوضوح[٩] . ولكن رئاسة بوش نفسها كانت فى ورطة بقدر ما كان الأمريكيون يتساءلون لماذا جرّ البلاد إلى الحرب مع العراق . وعلى الرغم من الانتصار فى إسقاط حكم صدام، كان المزيد والمزيد من جنود الولايات المتحدة يقتلون عندما تحولت الحرب

التى تقودها الولايات المتحدة إلى احتلال غير مرغوب فيه تقوده الولايات المتحدة للبلاد. وكان مطلب «أعيدو الأولاد إلى الوطن» قد بدأ ينمو. وكما فى بريطانيا، كان عامة الأمريكيين أيضا يعبرون عن عدم ثقة متزايدة حول السبب الرئيسى الذى قدمته كل من الحكومتين لشن الحرب: أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل. ولكن لم يمكن العثور على أسلحة دمار شامل. والأخطر من وجهة نظر كل من الحكومتين، كانت الشكوك المتزايدة حول «المخابرات» المريبة التى صنعت المزاعم حول أسلحة الدمار الشامل أولا. **وفى الولايات المتحدة كان هناك إمكانية لتوبيخ قابل للانفجار يختمر حول مزاعم المخابرات، قد انبثق من وحدة المخابرات «البديلة» «مكتب الخطط الخاصة» الذى أنشأه رامسفيلد فى البنتاجون. ومن اللافت للنظر، أن مكتب الخطط الخاصة كان مرتبطًا مع وحدة مخابرات «بديلة» تدار مباشرة من مكتب شارون فى إسرائيل!** وكانت هذه وحدات «بديلة» بمعنى أن منظمات المخابرات القائمة، مثل وكالة المخابرات المركزية C I A فى الولايات المتحدة، والموساد فى إسرائيل، كانتا تعتبران غير قادرتين على تقديم «المعلومات المخابراتية» عن العراق، والتى كانت الحكومتان تحتاج إليها. وكان المنسق هو الجمهورى الليكودى دوجلاس فيث الموظف الأمريكى الذى أشرنا إليه سابقا (انظر التحقيق الخاص الذى قام به جوليان بورجر فى صحيفة الجارديان ١٧ يوليو ٢٠٠٣).

وما إذا كان بوش سينجو من الأزمة التى تزداد عمقا ليس هو الموضوع. فقد كانت الحجة هى أن، على الرغم من الروابط الوثقى التى تربط بين الإدارة وشارون فى إسرائيل، وعلى الرغم من الكثير من البلاغة الأكثر وحشية، وكذلك مضحكات ألاعيب المؤامرات الليكودية، فإن سياسة الولايات المتحدة الخاصة والمحددة بشأن إسرائيل/ فلسطين بقيت متسقة مع حكومات الولايات المتحدة السابقة بشكل لافت للنظر.

وليس معنى هذا أن الفلسطينيين يمكن أن يحصلوا على الراحة من ذلك. وإذا لم تكن خارطة الطريق أكثر من خارطة لطريق يؤدى إلى العودة للنقطة التى انهارت عندها أوسلو، كما اقترحنا من قبل، إذن فإن أيا من المشكلات الحقيقية ـ المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وغزة، ووضع القدس وحق العودة للاجئين ـ لن يتم تناولها.